

الدراسات الثقافية وأثرها في تعليم الجغرافيا في الجامعة

إعداد

أ.د/ منصور أحمد عبد المنعم

أستاذ متفرغ المناهج وطرق تدريس الجغرافيا

ترتبط الثقافة بكل شيء في حياة الإنسان بدءاً من شكل الملابس إلى ماذا يأكل وكيف نتكلم أو ن فكر. ومصطلح الثقافة Culture دائماً ما يكون له معاني كثيرة متعددة مأخوذة من الحياة البشرية.

يشعر الإنسان بالثقافة عندما يترك مجتمعه أو دولته ويسافر عابراً الحدود. وعندما تسافر إلى المملكة العربية السعودية يحذرك الجميع أن تتكلم مع امرأة في الطريق العام أو أي مكان آخر، بينما في بلدان أخرى يعتبر هذا السلوك أو التصرف أمراً مقبولاً ولا شيء فيه. والثقافة في مثل هذه الحالات تعتبر هي المحدد لنظام تصرفاتنا اليومية وهي تبدو عندما نساfer عابرين ثقافات أخرى مختلفة فنقارنها بثقافتنا. وفي بلدان نرى تأثير شديد للمعتقدات الدينية والممارسات اليومية في تصرفات الناس بدون تفرقه في النوع أو الجنس، ونقول على ذلك الثقافة المسيطرة.

تعتبر الثقافة طريقة حياه تفرز لنا عموميات في الفكر والسلوك والمعايير والقواعد وهي التي تسمح لنا أن نعيش في جماعه أو جماعات وتعطينا إشارات أو علامات نعرفها فيما بيننا نحن أصحاب الثقافة الواحدة.

نتعرف على شركائنا في الثقافة الواحدة من خلال شكل الملابس ومن خلال الكلام واللغة والسلوك والتصرف والمظهر العام.

والثقافة من هذا المنطلق تعنى مجموعة معايير متداخله وتبدو كجزء لا يتجزأ من نمط حياه تنتهجه جماعة من الناس بدون تفكير مسبق تلك المعايير التي تنمو مع الفرد ويتعلمها من الطفولة المبكرة.

وإذا نظرنا إلى المدارس الخاصة في مصر نجد أن بعضها تميزها ثقافة من نوع ما quite specific Culture أمثلة ذلك مدارس سانت فاتيما بمدينة نصر بالقاهرة وسانت فامي والفرنسيسكان في المنصورة ومدرسة النصر للبنات بالإسكندرية EGC تجمعها ثقافة تفرض نظاماً وإدارة ومسؤولية عالية.

وهناك مدارس كلية الميردي ديو بالإسكندرية ومدرسة منارة هليوبوليس لغات بالقاهرة تجمعها ثقافة تتشابه مع السابقة. وذلك كله في مقابل ثقافة أخرى في المدارس الحكومية، قد تتشابه ولكن بالتأكيد تختلف بالزيادة والنقصان. يتضح مصطلح ثقافة عندما نترجم أفكار إلى موضوعات وأشياء مثل شكل المنازل والمنتزهات وأماكن الترفيه والتسليه وحتى الموسيقى التي نسمعها. تمثل الثقافة البرنامج الذي نعيش بواسطته وكذلك القواعد التي تحدد كيف نفكر وكيف نتصرف. وتشتمل الثقافة على أكثر من الفن والنشاط الإبداعي الإنساني.

ظهر ما يسمى بمجال الدراسات الثقافية Cultural Studies في بريطانيا خلال الستينات والسبعينات من القرن العشرين. وتبلور هذا الاتجاه في كتاب نشر عام ٢٠١٠ مؤلفه Micael Ryam وعنوانه Cultural Studies الناشر Wiley – Blackwell وهو مصدر الإيحاء بكتابه المقال الحالي.

وتعتبر الثقافة احد الطرق أو الوسائل في المحافظة على استقرار المجتمع والحياة المدنية. والدراسات الثقافية لها أبعاد ترتبط بالمعنويات moral وبالسلوك والمبادئ وترتبط بالأخلاق ethics ولها أبعاد سياسية. وهو مدخل جيد

للتعليم لتمييزه بالغنى والثراء المعرفي ويبراه البعض نوع من المقتطفات أو المداخل الأدبية An Anthology.

دائماً ما تجمع الثقافة بين الحدث بشقية الطبيعي الفيزيقي وكذلك الفكري المعنوي، فهو مزيج من مفهوم الإبداع والإنتاج الذي يعتمد على الآلة الميكانيكية (الصناعة).

• المكان والحيز والجغرافيا:

تعتبر الثقافة متلازمة غير منفصلة عن الموقع أو المكان Location أو الحيز Space. ودُعمت هذه النظرة، عندما نظمت المجتمعات البشرية المبكرة وفق تأثير الأمكنة والمواقع والبيئات.

وهناك تأثير واضح لعوامل مثل المناخ، جودة الأرض والتربة، وفرة مواد البناء التي هيأت فرص لأنواع من الثقافة.

من جهة أخرى، كان للثقافة تأثيرها على كثير من الأماكن والمواقع حاملة جوانب قيمية وأفكار ومُلبية لحاجات المجتمع في وقت اتسم فيه الاستقرار البشري والسكن أو العمران بأنه مؤقت أكثر من كونه دائم خلال تطوره.

وتعلمنا الجغرافيا الثقافية، وأنه كما يؤثر في حياتنا العالم الطبيعي الفيزيقي فنحن من جهة أخرى نؤثر في هذا العالم بأفكارنا وتصوراتنا وخيالاتنا وجوانب المثل عندنا وكذلك المعاني.

ولا نكون مغالين إذا قلنا أن الاعتمادية بين الثقافة البشرية والبيئة الطبيعية الفيزيكية دائماً تكون في اتجاهين. فعلى سبيل المثال الثقافة الصينية تبدو منظمة بسبب الإنتاج الزراعي المرتفع واستطاعت تطوير مؤسسات مثل المدارس ومنشآت محاكم القضاء وأنظمة حكومية أخرى.

وساعد اختراع الكتابة على تطوير الثقافة، وكان للمعتقدات الدينية في الصين الأثر الأكبر في تدعيم مبادئ تؤكد قيم مثل احترام السلطة وكبح الذات Self – restraint.

وتعتبر الثقافة ذات بعد مكاني وجغرافي من عدة طرق:

- ❖ يتوزع السكان وفقاً لعوامل جغرافية وفروق ثقافية (مثال ذلك الثقافة الصينية والثقافة الأمريكية).
- ❖ الثقافة تعنى المعلومات التي تنتقل عبر الأماكن والأفضية.
- ❖ الاستقرار السكاني يجلب معه فكر ايدولوجي جديد مثال شمال أمريكا في القرن السابع عشر.
- ❖ الثقافة مكانية حيث تسمح بعلاقات القوة لإقليم أو دولة على إقليم آخر أو دولة أخرى مثال تأثير اللغة في منطقة فرنسا والمانيا وانجلترا زمن الإمبراطورية الرومانية (بيزنطة - روما).
- ❖ تُفهم الثقافة كطريقة حياة في مجتمع له طبيعته المكانية ويختلف ويتباين حسب الموقع Location.
- ❖ لو أن إنسان يعيش في احد المساكن أو الشقق الفخمة في مانهاتن الشمالية العليا Upper بالولايات المتحدة سوف يجد خبره ثقافية مختلفة عن شخص آخر يعيش دون مأوى في شوارع مانهاتن السفلى Below الجنوبية.
- أو شخص يمتلك ويعيش في منزل أو شقة في مدينة الرحاب بالقاهرة الجديدة،

أو في التجمع الخامس أو مدينتي وآخر يعيش في تجمعات سكنية بالقاهرة في الدرب الأحمر أو بولاق. بل قد تجد نقيض من الثقافة في منطقة واحده مثلاً في حي الواحة التي تقع كامتداد للحي العاشر في مدينة نصر بالقاهرة فالخبرة الثقافية مختلفة بين هذه الأماكن السابقة وقد تختلف في المكان الواحد في مدينة مثل القاهرة كما تم الإشارة إليه.

الثقافة منظور أو رؤية ترتبط بالمكان الذي من خلاله ننظر للعالم من حولنا ولذلك نقول أن للثقافة حدود وموقع ومكان وكذلك بعد جغرافياً.

إن هذا الفهم السابق قد يجعلنا ندقق في الأفكار التي يُصدرها الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة للدول العربية ودول العالم الثالث لمحاولة تطبيق معايير عالمية على أنظمة دول تعاني من تدهور في الاقتصاد ونقص في الخدمات ومشكلات في الإدارة وفي زيادة وسوء توزيع للسكان، مما يجعلها عاجزة على المنافسة العالمية في ظل غزو ثقافي وساعد على ذلك مواقع التواصل الاجتماعي والفضاء الإلكتروني.

فالثقافة أداة عن طريقها ينتقل المجتمع إلى المدنية بعيداً عن الفوضى والحياة التي تخلو من المعاني والطموح. ونحن نعيد تشكيل اللاندسكيب الطبيعي حولنا بالتشييد والبناء أو إعادة التشكيل واستثماره من خلال الأفكار Ideas والإرادة أو النية Intention ومحاولاتنا لجعل حياتنا ذات معنى ومغزى.

ويسهم التعليم في خلق الأفكار والأنشطة العقلية الحية وفي ذلك كله علامات للثقافة.

ويجدر الإشارة إلى أن اللاندسكيب الطبيعي يشتمل على معاني وأهداف لها أبعاد تاريخية، اجتماعية، اقتصادية، والبعض أيديولوجي أو فلسفي أو سياسي. وتجمعهم كلهم الثقافة نتاج أفكار الإنسان. تجمع الثقافة الناس رغم اختلافهم

في النوع (ذكور - إناث) وفي العرق والمعتقدات وفي المستوى الاقتصادي والدخول. ويأتي اللاندسكيب الثقافي ليجمع هذه التقسيمات (مثال تركيز الثروة وحياء البيض في مركز فيلادفيا بالولايات المتحدة وبين شمال فيلادفيا حيث الفقراء من الزوج السود).

تهتم الجغرافيا الثقافية باللغة التي يتحدث بها الناس في إقليم أو دولة وبالتقوانين المطبقة والمؤسسات الموجودة. وحتى طبيعة العلاقات بين الناس وبيئتهم والدول التي كانت تمثل قوة في الماضي ومن يمثل قوه في الوقت الراهن.

إن الدراسات الثقافية يمكن أن تصبح مدخلا لتعليم الجغرافيا في الجامعة وهي تشمل السياسة والصناعة، والجغرافيا، النوع أو الجنس (ذكور - إناث)، ايدولوجيا، الاثنولوجيا علم الأعراق، الهوية، أسلوب الحياة أو نمط الحياة وجودتها، الموسيقى، الثقافة المرئية الالكترونية، العولمة، وما بعد الحداثة والموضة والأزياء. وما يدعم الفكرة المطروحة من خلال المقال الحالي قدره أصول الجغرافيا والتدريس كمجالات معرفية في إحداث التغيير الثقافي والمساهمة في توجيه الحركة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع. فأصول التدريس والجغرافيا من جهة والدراسات الثقافية من جهة أخرى بمثابة محتوى ووسيلة لدعم ونقل الثقافة التي تتسم بالكل المعقد.

وعلى ذلك يمكن القول أن مجال الدراسات الثقافية مدخل رحب لفروع الجغرافيا البشرية وكذلك لمجال تعليم الجغرافيا بالجامعة.